النيل وحوض النيل ووادي النيل

أما النيل ، فهو هذا النهر العظيم ، الذين على ضفافه قامت نوي الحضارات الإنسانية وسار في ركابها أنبياء الله أبراهيم وموسي وعيسي وحتى النبي الخاتم (ص) الذي رأي في مسراه حسب الروايات النيل من مصبه إلى منبعه والنيل مذكور في كل الكتب السماوية ، ومن الاساطير المؤسسة للدولة الصهيونية أنها تمتد من النيل إلى الفرات ومما ورد على لسان الفرعون (أو ليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي أفلا تبصرون) الزخرف آية 51 – ووصف النيل في التراث الإسلامي بأنه من أنهار الجنة ؟ ولما لا وإن كان القرآن الكريم قد نزل في الحجاز إلا أنه قريء وفُسِر على ضفاف النيل واعظم علماء وفقهاء الإسلام ارتووا من مياه النيل بدءا من صحابة رسول الله مرورا بالشافعي والعز بن عبدالسلام وانتهاء بعلماء الأزهر وقادة الفكر الإسلامي وقادة الفتوح من عمرو بن العاص إلى صلاح الدين الأيوبي .

أما مصطلح وادي النيل فيقصد به مصر والسودان ، حيث ينحدر النيل من المرتفعات الإثيوبية ومناطق تقسيم المياه في خطاء الاستواء إلى الاراضي المنبسطة في السودان ومصر– أما الحوض فيجمع ارتريا ، أوغندا ، إثيوبيا والسودان ، والكنغو الديمقراطية ، جنوب السودان ، كينيا، تنزانيا ، رواندا ، بورندي ، ومصر ، ويبلغ طول النيل بروافده أكثر من 6650 كلم ، ولعل معظم التراث الإسلامي فكرا وفنا وثقافة تشكل على ضفاف الوادي .

هذا النهر المبارك ، الذي هو رمز للحياة والنماء والمحبة والإخاء والذي ظل يرفد المشاطئين له بالحياة ، أخذت تحيط به نذر الصراعات والخلافات حول وضعيته وملكيته ومن يستحق أن يستفيد من مائه ونمائه حتى برز مصطلح حرب المياه مع التدافع في بناء السدود وحجز المياه.

ولعل أول من بدء في بناء السدود وعلى النيل بعد قناطر محمود على الاستعمار الإنجليزي في مصر عام 1898م ، حينما وضعوا حجر أساس خزان اسوان في عهد المعتمد الإنجليزي لورد كرومر وتم اكمال المشروع عام 1902م ، وكان حينها أكبر سد. في العالم. ، ثم. تلا ذلك ، مقترح المهندس الإنجليزي موردخاي ماكدونالد ببناء سدين في السودان أحدهما في سنار والآخر في جبل أولياء بتوجيه من لورد كتشنر ، وفي عام 1929م تم توقيع إتفاقية لتقسيم المياه بين مصر والسودان وتم أكمال بناء خزان جبل أولياء في عام 1937م وسبقه بناء خزان سنار الذي اكتمل في عام 1925م وافتتح عام 1926م لري مشروع الجزيرة بضمان من الحكومة البريطانية بعد رفض الحكومة المصرية ضمان القرض الخاص به .

وفي عام 1949م تم اكمال الإتفاق الخاص ببناء خزان شلالات اوين والذي سيرفع مستوى المياه في بحيرة فكتوريا 7 أقدام ، كما سيوفر ليوغندا احتياجاتها من الكهرباء – وتم توقيع الإتفاقية بريطانية نيابة عن اوغندا في عام 1953م مع مصر – وتم افتتاحه في عام 1954م – ثم توالت السدود على النيل وكان أهمها السد العالي الذي أدى لتهجير النوبيين وخلف وراءه بحيرة تتسع 154 بليون متر مكعب مياه ، وتم افتتاحه في عام 1971م في عهد السادات وإن بدء مشروع البناء بتعاون مصر / سوفيتي في عهد الرئيس عبدالناصر وتغطي البحيرة 2.550 ميل مربع من الاراضي السودانية والمصرية بعمق300 ميل داخل الأراضي السودانية – ثم تلا ذلك بناء خزان خشم القربة ثم الروصيرص وأصبح هناك تحكم جزيء في مياه النيل المنسابة بالسدود بدءا من أسوان والسد العالي وسد مروي وسنار والروصيرص وخشم القربة وجبل أولياء وخزان أوين ثم دخلعت على خريطة التحكم في مسار النيل الخزانات الإثيوبية على نهر تكازي وسد النهضة عند مدخل النيل الأزرق على الحدود السودانية منطقة بني شنقول ، التي كانت يوما جزءا من إمبراطورية الوالي المصري محمد على الذي طابق بين مشروع مصر الطبيعية وحوض النيل .

ومايزال الحوار دائرا حول تأثيرات هذه السدود على جريان النيل وحركة النيل ، مع الزحف الصحراوي والجفاف وازدياد الضغط على مياه النيل والسحب من مياه دون الإلتفات لضوابط أو قوانين ، حتى بدأت تظهر في وسطه الجزر الرملية وتنضب المياه في بعض نواحي حوضه ، ويلوم دول الحوض بعضها بعضا ولا يكاد يوجد جهد جاد في العناية بالحوض ونظافته وتحسين موارده .

ولعل أكبر مؤثرين على الحوض هما بحيرة السد العالي التي حجبت الطمي عن مصر ، كما تهدر سنويا عشرة بلايين متر مكعب من المياه في البخر والترسيب ولايبدو أن الكهرباء المنتجة تعوض هذا الفقد المائي حيث تحتاج مصر لكل قطرة ماء نقية والمؤثر الثاني سيكون سد النهضة ، الذي إن لم يتم الإتفاق على قوانين ادارته وتخزينه ، فإنه سيؤدي في سنوات الشح المائي إلى تأثيرات عميقة على إدارة الماء في مصر وإن كان سيكون تأثيراته الإيجابية على السودان أكبر من سلبياته .

كان الأمل معقودا في زيادة موارد النيل على شق قناة جنقلي ، التي ستسحب المياه من منطقة السدود التي تروح هدرا في البخر ولكن هذا المشروع توقف عند الميل 166 أي بعد حفره الكراكة الفرنسية الضخمة ثلثي قناة جنقلي ومعها طريق معبد ترابيا كان سيختصر المسافة من جوبا إلى كوستي إلى ساعات " ربما عشرين ساعة بالعربات " ولكن في 10 فبراير 1981م

هاجمت قوات الحركة الشعبية الموقع وظل العمل متوقفا حتى اليوم ولم تتكاتف الإدارة المصرية مع الحكومة السودانية لإكمال الثلث المتبقي رغم أن مصر هي المستفيد الاكبر .
كما شُحن العقل الجنوبي بكمية من الهواجس والشائعات والاكاذيب حول تأثيرات شق القناة ، التي كانت ستعطي الجنوب مراعي خالية من الملاريا وعشرين مليون فدان صالحة للزراعة ولكن ضاعت الفرصة كما كانت القناة ستخلص عوائق الملاحة والحواجز والفواصل مابين الشمال والجنوب ويصبح الطريق مفتوحا من الخرطوم حتى دار السلام وكيجالي .
ومن المشروعات الحيوية التي صاعت نتيجة لإنزواء الإدارة المصرية عن دورها القيادي في المنطقة ، كذلك شق قناة مشار وهي قناة تبدأ من عند ملتقي نهر البارو مع الحدود السودانية وتنتهي عند ملوط شمال ملكال وهناك إتفاق بين الخبراء أن كل تأثيراتها إيجابية وستغذي النيل بمالايقل عن أربعة مليارات من الأمتار المكعبة – ولكن لم تك هناك أرادة سياسية وكأنما مصر تريد أن تعود عليها هذه المشاريع هدايا على طبق من الذهب .
وكنت قد اقترحت في مقالة نشرتها مجلة وجهة نظر المصرية قيام جامعة دراسات تنمية حوض النيل كمشروع مشترك بين دول الحوض ، للتفاهم والتحاور وإنتاج عقل مائي مشترك ما بين المصري والتنزاني والإثيوبي الخ ، وحتى تتبدد الهواجس والظنون ويتم تطوير الحوض على أسس علمية وتحديد المشروعات فيه بعقل مائي من كل دول الحوض الأحد عشر ولكن ضاعت الصيحة ، وماتزال المكتبة المائية التي تعتمد عليها دول الحوض وأساسا مصر والسودان وإثيوبيا هي دراسات الخبراء الإنجليز التي كتبت في أواخر القرن التاسع عشر وفواتيح القرن العشرين ولم يظهر علماء من المنطقة في الشأن المائي وهايدروليك النيل والحراك المائي فيه – كأنما العقل المائي جمد على ما توصل إليه علماء الإنجليز في حوليات القرن العشرين – وبدون قيام هذه الجامعة المشتركة والعقل المائي المشترك ستتجدد والهواجس وتضيع الهوية الجامعة لدول الحوض ولن تستطيع هذه الدول تقديم خطاب مشترك حول النيل للعالم كما ستضيع مع مياه النيل قيم التنمية والحرية والعدالة وكرامة الإنسان مما يفتح المجال أمام الصراع وحروب المياه جنب الله الكريم دول الحوض الصراعات والحروب والسلام ..

أ.د. حسن مكي محمد أحمد